نظام القرآن
وتأويل الفرقان بالفرقان

تأليف
الإمام العلامة عبد الحميد الفراهي

اعتناء
الدكتور عبيد الله الفراهي

الجزء الأول



تونس

الطبعة الأولى

1433 هـ - 2012 م

دار الغرب الإسلامي

العنوان: ص.ب.: 677 تونس 1035

نظام القرآن
وتأويل الفرقان بالفرقان

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة الجامع

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسوله الكريم وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد، فإن الإمام العلامة عبد الحميد بن عبد الكريم الفراهي (١٢٨٠-١٣٤٩هـ) رحمه الله لم يقدَّر له إتمام تفسيره العظيم (نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان). «وذلك ما خسرت به الأمة المحمدية» كما قال صديقه العلامة السيد سليمان الندوي رحمه الله. وأول ما فسَّر بعض قصار السور من آخر القرآن الكريم، ولم يكن ذلك لسهولة تلك السور وقصرها ـ كما يبدو لأول وهلة ـ بل لما أشكل من نظامها أو أساليبها على كثير من المفسرين، ولكونها جماع علوم القرآن وأصول الإيمان، وليتبين للناس أن قصار السور ليست بأقل من طوالها في سعة مضامينها، ودقة نظامها، وكمال بلاغتها، وكان كلما أكمل تفسير سورة نشره مفرداً على أنه جزء من تفسيره «نظام القرآن..» الذي قسمه إلى ١١٤ جزءاً بحسب عدد سور القرآن.

وقد نشرت الأجزاء المذكورة قديما طبعة حجرية بخط النستعليق، ثم طبع تفسير سورة البقرة قبل عشر سنوات، وأخيرا صدرت مجموعة سنة ١٤٢٨ تضم أجزاء التفسير المطبوعة ما عدا تفسير سورة البقرة. ولكونها جميعا صدرت في الهند لم يتيسر الاطلاع عليها للباحثين في البلاد العربية إلا قليلا. ومن ثم عزمنا على إصدار هذه المجموعة التي بين أيديكم، وهي تنفرد بجزئين لم يسبق نشرهما. والأجزاء التي تشتمل عليها هذه خمسة أقسام:

(١) الأجزاء العشرة التي صدرت في حياة المؤلف رحمه الله، وهي كاملة،

وكل جزء أفرد لتفسير سورة من السور الآتية: الذاريات (١٣٣٨هـ)، والتحريم (١٣٢٦هـ)، والقيامة (١٣٢٤هـ)، والمرسلات، وعبس (١٣٣٨هـ)، والشمس (١٣٢٦هـ)، والتين، والعصر (١٣٢٦هـ)، والكوثر، والكافرون (١٣٢٦هـ)، واللهب (١٣٢٤هـ).

(٢) جزء كامل صدر سنة ١٣٥٤هـ بعد وفاته، وهو في تفسير سورة الفيل.

(٣) جزء ناقص في تفسير البسملة وسورة الفاتحة صدر ملحقاً بكتاب فاتحة نظام القرآن سنة ١٣٥٧هـ، والظاهر أنه من أوائل كتبه.

(٤) جزء ناقص في تفسير سورة البقرة صدر سنة ١٤٢٠هـ، وهو يشتمل على تفسير ٦٢ آية.

وهذا الجزء له مزية على الأجزاء التفسيرية الأخرى، فإنه يمثل آخر نموذج اختاره الفراهي لترتيب الفصول في تفسير كل سورة. فقد صرح في تذكرة له كتبها على ظهر الورقة الأولى من المسودة بأنه سيتكلم في تفسير كل سورة على سبعة عناوين:

١ - المقدمة (لبيان عمود السورة، ونظامها، ومواقع نزولها، ووجوه خطابها، وغير ذلك من الأمور الكلية).

٢ - الكلم (تفسير المفردات).

٣ - النحو (بيان تأليف الكلم).

٤ - البلاغة (دلالة الأساليب على معان تناسب المحل).

٥ - التأويل (حمل الكلام على مراده حسب المحل).

٦ - التدبر (ذكر المبادئ والنتائج أي اقتضاء النص وإشارته).

٧ - النظم (بيان موقع جملة من الكلام ورباط بعضها ببعض).

وقد أشار في هذه التذكرة أيضاً إلى ما يستدل به في الكلام على العناوين المذكورة.

وإذا كان تفسير سورة البقرة لم يكتمل، فإن مقدمته تامة، وتشتمل على عشرة فصول. وضممنا إليها مقدمة أخرى ناقصة كتبت فيما يبدو قبل السابقة، وفيها تحليل مفصل لأجزاء السورة ومطالبها.

(٥) جزءان ناقصان في تفسير سورة آل عمران وتفسير سورة الحج، وننشرهما في هذه المجموعة لأول مرة.

وكان المؤلف رحمه الله قد أنشأ خطبة بليغة ليستهل بها تفسيره العظيم، وأجاد في تحبيرها ما شاء الله أن يجيد، فجاءت مشتملة على مائة وسبعين فقرة، مثل «وشي اليَمْنة الحِبَرة». وهي التي سمعها الدكتور تقي الدين الهلالي المراكشي رحمه الله من لسان المؤلف حينما زاره سنة ١٣٤٢هـ، فقال في مذكّراته: «سمعت منه خطبة تفسيره للقرآن، اغرورقت منها عيناي لفصاحتها وحقيّتها»، وقد وضعنا هذه الخطبة البديعة في أول هذه المجموعة.

وللمؤلف رحمه الله مقدمة لتفسيره سماها «فاتحة نظام القرآن»، وقيد مباحثها في أوقات متفرقة، ولم يكملها أيضا. والأمور التي اقتضت التوسع في الكلام أفردها بكتب مستقلة، وصرح في أولها بأنها في الأصل أجزاءٌ من مقدمة التفسير. فكتبه المفردة في ألفاظ القرآن وأساليبه وأصول تأويله ودلائل نظامه وتاريخه وأسباب نزوله وناسخه ومنسوخه، ثم كتبه في عيون العقائد وأصول الشرائع وإحكام الأصول بأحكام الرسول والرأي الصحيح فيمن هو الذبيح وغيره، مما تم تأليفه أو لم يتم، كلُّها أجزاءٌ من مقدمة تفسيره، وسننشر بإذن الله هذه الرسائل ـ وجلّها ناقصة ـ مع «فاتحة نظام القرآن» في مجموعة واحدة.

وقد وُجد في مسودات المؤلف رحمه الله بعد وفاتِه ثلاثة مصاحف قد جلَّد كلاً منها بحيث وضع بين كل ورقتين منه ورقةً بيضاء يعلِّق فيها تأملاتِه وخواطره ، وقد تم تجريد هذه التعليقات ، وسننشرها أيضاً إن شاء الله في مجموعة مستقلة.

وكان للإمام الفراهي منهج فريد في التفسير، اشتهر به في شبه القارة الهندية، وقد أفاض القول في بيان أصوله في مقدمة تفسيره (فاتحة نظام القرآن)، وأبانت عنه أجزاء التفسير التي صدرت في حياته. ولكن لم يقف عليها العلماء والباحثون في البلاد العربية إلا قليل، ومنهم السيد رشيد رضا رحمه الله، الذي بعث إليه الفراهي بنسخ منها، فكتب كلمة في مجلة المنار (صفر ١٣٢٧هـ) أثنى فيها على منهجه، ومما قال: «وقد ألقينا على بعض هذه الرسائل لمحة من النظر، فإذا طريق جديد في أسلوب جديد من التفسير، يشترك مع طريقنا في القصد إلى المعاني من حيث هي هداية إلهية، دون المباحث الفنية العربية.. وإن للمؤلف لفهماً ثاقباً في القرآن، وإن له فيه مذاهب في البيان.. وإنه لكثير الرجوع باللغة إلى مواردها والصدور عنها ريان من شواهدها».

ولم تطبع تلك الأجزاء مرة أخرى بعدما ترجمت إلى اللغة الأردية، وصار التعويل في بلاد الهند أيضاً على الترجمة دون الأصل. أما المؤلفات الأخرى التي طبعت بعد وفاة الإمام نحو مقدمة التفسير، ودلائل النظام، والتكميل في أصول التأويل، فهي أيضاً ظلت بعيدة بصورة عامة عن متناول الباحثين في البلاد العربية.

ومن ثم رأينا أن نشير هنا إشارة خاطفة إلى بعض أصول هذا المنهج من خلال مقتطفات من كلام الإمام نفسه. وأهمها أصلان يدل عليهما عنوان التفسير نفسه: الأول نظام القرآن، والآخر تأويل الفرقان بالفرقان.

أما تأويل الفرقان بالفرقان فهو أصل معروف مجمع عليه ولا يحتاج إلى بيان، غير أن منهج الفراهي يتميز بالتمسك الشديد بهذا الأصل والاستفادة منه على أنحاء

غفل عنها كثير من المفسرين.

أما «النظام» فالمقصود به ما يسميه الكتاب المعاصرون بالوحدة الموضوعية، فكل سورة لها موضوع معين ـ يسميه الفراهي عمود السورة ـ تدور عليه بأجزائها المترابطة فيما بينها ترابطاً معنوياً محكماً. ويختلف النظام عن التناسب الذي عني به جماعة من علمائنا القدامى، وعدّوه علماً شريفاً، والفرق بينهما «أن التناسب جزء من النظام، فإن التناسب بين الآيات بعضها مع بض لا يكشف عن كون الكلام شيئاً واحداً مستقلاً بنفسه، وطالب التناسب ربما يقنع بمناسبة ما، فربما يغفل عن المناسبة التي ينتظم بها الكلام، فيصير شيئاً واحداً. وربما يطلب المناسبة بين الآيات المتجاورة مع عدم اتصالها، فإن الآية التالية ربما تكون متصلة بالتي قبلها على بعد منها. فإن عدم الاتصال بين آيات متجاورة يوجد كثيراً. ومنها ما ترى فيه اقتضاباً بيّناً، وذلك إذا كانت الآية أو جملة من الآيات متصلة بالتي على بعد منها... وبالجملة فمرادنا بالنظام أن تكون السورة كلاماً واحداً، ثم تكون ذات مناسبة بالسورة السابقة واللاحقة، أو بالتي قبلها أو بعدها على بعد ما، فكما أن الآيات ربما تكون معترضة، فكذلك ربما تكون السور معترضة. وعلى هذا الأصل ترى القرآن كله كلاماً واحداً ذا مناسبة وترتيب في أجزائه من الأول إلى الآخر... فالنظام هو الذي يعطي السورة وحدانيتها التي بها صارت سورة كاملة مستقلة بنفسها ذات عمود تجري إليه أجزاؤها... ولا بد لحسن النظام من أن يكون الكلام حسن الترتيب، حسن التناسب، قوي الوحدانية».

والنظام عند الفراهي ليس أمراً مقصوداً لذاته، وإنما هو المنهاج الصحيح لتدبر القرآن، وهو الحكم عند تضارب الأقوال، وهو المرجح عند تعدد الاحتمالات، وهو الإقليد الذي تفتح به كنوز حكمة القرآن.

ويظهر من كلام بعض المتقدمين أنهم قد توصلوا إلى فكرة النظام، نحو قول

القاضي أبي بكر ابن العربي رحمه الله: «ارتباط آي القرآن بعضها ببعض حتى تكون كالكلمة الواحدة متسقة المعاني منتظمة المباني علم عظيم..» ولكن لم يبلغ أحدهم في تأصيله وتفريعه واستيعاب وجوه القول فيه ما بلغه الإمام الفراهي، فالحق أنه هو الذي نزَّل هذا العلم منزلته الصحيحة، وأسَّسه على أصول راسخة، ثم أنهج سبيله، ورسم حدوده، ونصب أعلامه، ووضع فيه كتاباً مفرداً باسم دلائل النظام.

وفي الكشف عن نظام القرآن لا يلجأ الإمام الفراهي إلى مناهج أهل الفلسفة والمنطق أو المتصوفة، وإنما يعتمد على القرآن نفسه. وفي ذلك يقول رحمه الله: «أجمع أهل التأويل من السلف إلى الخلف أن القرآن يفسر بعضه بعضاً، وأنه هو أوثق تعويلاً وأحسن تأويلاً، فنقول: كما أن القرآن يفسر مطالب آياته بعضها ببعض، فكذلك يدلك على نظام مطالبها ومناسبتها، بما يأتيك بنظائره، فتكثر الشواهد على رباط أمر مع أمر، وبذلك يحثك على التأمل في جامع وصلة بينها، ثم يأتي عليه بأمثلة كثيرة بعضها أوضح من بعض، حتى يتدرج بك على ما كان أدق وأغمض».

وتبين من ذلك أن هذا الأصل ـ أي النظام ـ أيضاً راجع في حقيقة الأمر إلى الأصل السابق، وهو تفسير القرآن بالقرآن. وليس عطف النظام عليه في اسم الكتاب إلا من باب عطف العام على الخاص، وإنما قدّمه تنويهاً بشأنه، وتنبيهاً على إغفال الناس إياه، مع أهميته البالغة في فهم القرآن. فالحق أن تفسير القرآن بالقرآن هو الأصل الأصيل عند الفراهي.

أما الأحاديث، فكان له منهج خاص في نقلها في تفسيره، بيّنه في فاتحة نظام القرآن قائلاً: «ولعمري أحب التفسير عندي ما جاء من النبي ﷺ وأصحابه ﷺ.. وإني مع اليقين بأن الصحاح لا تخالف القرآن، لا آتي بها إلا كالتبع بعد ما فسرت الآيات بأمثالها، لكيلا يفتح باب المعارضة للمارقين الذين نبذوا القرآن وراء ظهورهم،

والملحدين الذين يلزموننا ما ليس له في القرآن أصل، ولكي يكون هذا الكتاب حجة بين فرق المسلمين وقبلة سواء بيننا. فإني ما أردت أن أجمع كل ما يتعلق بالقرآن، فإنه كنز لا ينفد على كثرة المجتهدين. والكتب في التفسير كثيرة، فمن يسرح فيها نظر التحقيق يؤت من العلم ما شاء الله، ولكني أردت ما يكون كالأساس والأم والوسط والحكم. ولهذا اقتصرت على ما في القرآن، غير جاحد لما تركته، كما جمع الإمام البخاري رحمه الله في كتابه كل ما ثبت عنده من الحديث متفقاً عليه مع ما ترك كثيراً من الصحاح».

أما تحقيق ألفاظ القرآن وأساليبه، فإن الإمام الفراهي ـ وقد انتهى إليه علم العربية بكل فنونها ـ يعتمد على القرآن الكريم نفسه ثم كلام العرب الأقحاح، مع استفادته من كتب اللغة مراعياً حدودها وقصورها، «فإنها كثيراً ما لا تأتي بحد تام، ولا تميز بين العربي القح والمولد، ولا تهديك إلى جرثومة المعنى فلا يدري ما الأصل وما الفرع، وما الحقيقة وما المجاز، فمن لم يمارس كلام العرب واقتصر على كتب اللغة ربما لم يهتد لفهم بعض المعاني من كتاب الله...» وذلك ـ بطبيعة الحال ـ في غير المصطلحات الشرعية التي لا يؤخذ تفسيرها إلا من السنة النبوية، كما صرح بذلك في مقدمة التفسير.

ولا يعرج ـ رحمه الله ـ على الإسرائيليات المنقولة في كتب التفسير، بل يرجع إلى الصحف الموجودة بأيدي اليهود والنصارى ـ وقد درسها دراسة نقدية مع معرفته باللغة العبرانية واطلاعه على الدراسات التي قامت حولها في الغرب ـ فإن «من نظر في الكتب السابقة استبان له فضل تعليم القرآن عليها، وإعادة بعض ما نسوه من كتبهم، وكشف ما بدّلوه»، ولتقوم الحجة على الأمتين من كتبهم. وهذا الغرض النبيل لا يخص عصراً دون عصر، ولكن لعل اهتمام المؤلف بذلك ـ بصورة خاصة ـ مردّه إلى تولي المستشرقين ـ في عهده ـ أعلى المناصب في الجامعات والمعاهد الهندية، وانتشار

المنصرين في كل أرجاء الهند يوزعون صحائفهم المحرفة، ويناظرون علماء المسلمين، ويخادعون دهماءهم.

نقتصر هنا على هذه اللمحة الدالة التي قصدنا منها إلى إفادة القراء والباحثين الذين لم يطلعوا من قبل على مؤلفات الإمام الفراهي في التفسير وعلوم القرآن. ومن أراد التفصيل فليرجع إلى كتبه: فاتحة نظام القرآن، ودلائل النظام، والتكميل في أصول التأويل، وغيرها . ثم هذه المجموعة من تفسيره تمثِّل منهجه خير تمثيل.

وفي ختام هذه الكلمة نحب التنبيه عل أمور:

١- لم نصدّر هذه المجموعة بترجمة مفصلة للمؤلف لكيلا يزيد حجمها، ويمكن الرجوع لها إلى مقدمة محقق كتاب مفردات القرآن طبعة دار الغرب الإسلامي في بيروت. ورأينا أن نكتفي في مطلع هذه المجموعة بإثبات ترجمة ذاتية للمؤلف رحمه الله كتبها بخطه في مذكرة الشيخ تقي الدين الهلالي رحمه الله بناء على طلبه، ثم ما كتبه الشيخ نفسه عقب ذلك في وصف المؤلف، وقد زاره في قريته في شهر رمضان من سنة ١٣٤٢، أي قبل وفاة المؤلف بسبع سنوات. وأضفنا إليه نصًّا آخر من مقال للشيخ منشور في مجلة الضياء الهندية سنة ١٣٥١.

٢- لم تُكتب هذه الأجزاء الكاملة أو الناقصة التي تضمُّها هذه المجموعة في زمنٍ واحد، ومن ثَمّ اختلف منهج المؤلف فيها بعض الاختلاف. ومن ذلك أنه تعرض في تفسير سورة الفاتحة ـ وهو من أوائل ما كتبه ـ إلى الكشف عن بعض أسرارها الغامضة، على منهج غير معهود في كتاباته. وقد صرح بأن الذي دفعه إلى ذلك نشوء نحلة القاديانية وفتنة الناس بما زعمت من أن مؤسسها المتنبئ قد انكشفت له أسرار القرآن.

٣- كان المؤلف رحمه الله يحب الإيجاز ويكره الاستطراد، ويرتب فصول كتبه

ترتيباً محكماً. والمسائل التي كان يريد تحقيقها والكلام عليها سواء في التفسير أو في كتبه التي ينوي تأليفها كانت مواضعها الخليقة بها معيَّنةً عنده وماثلة نصب عينيه، فكان يتكلم في كل موضع بقدر الحاجة خوفاً من التكرار. والآن حينما ننظر في كتاباته الناقصة نتمنى لو استطرد، فحقق هذه المسألة أو تلك، لنكون قد وقفنا على رأيه ومذهبه فيها. وكان الاقتصار على الكلام حسب مقتضى المقام سبباً لسوء الفهم في بعض الأحيان، ومن ذلك أنه اقتصر في تفسير سورة الذاريات (الفصل ١٦) على بيان أثر الرياح في نجاة موسى وبني إسرائيل وهلاك فرعون وجنوده، لكون الله سبحانه أقسم في أول السورة بالرياح، والقسم عند الفراهي للاستشهاد والاستدلال، فلا بد أن يكون للرياح تأثير في كل قصة من القصص المذكورة في السورة، فبيّن رحمه الله أثر الرياح في تلك القصص ومنها قصة موسى وفرعون، ولم يُشر في كلامه إلى ضرب موسى عصاه على الماء، لأنه لم يكن مذكوراً في هذه السورة، فخُيّل إلى بعض الناس أن غرض المؤلف إنكار المعجزة. وحاشاه من ذلك، فقد أنكر في عدة مواضع من كتبه إنكاراً شديداً على من أنكر المعجزات. ومن ذلك: قوله في كتابه «القائد إلى عيون العقائد» (ص ١٧٢) تحت عنوان «مغالطة من أنكر بالمعجزات» قال: «وأخطأ من ظن أن الطبائع من سنة الله... وهذا الخطأ منهم انجرَّ إلى عثرة كبيرة، وهي أن خرق عادات الأشياء محال، فأنكروا بصريح القرآن والكتب السماوية، وحرّفوا النصوص الواضحة إلى الأباطيل الفاضحة».

٤- ذهب المؤلف رحمه الله في تفسير سورة الفيل إلى مذهب جديد، ولكن لم يحمله عليه إنكار الخوارق، بل أمور أخرى تراها في تفسير السورة. ولم يَنشره المؤلف في حياته، فلعله كان لا يزال يعيد النظر في مباحثه. فلما صدر بعد وفاته نقده بعض علماء الهند مع اعترافهم بجلالة المؤلف وما عُرف رحمه الله من الورع والديانة والزهد في الصيت والسمعة والبعد عن التشهي. وللشيخ عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني

رسالة في نقد هذا التفسير، وقد اعترف في أولها بعبقرية الإمام الفراهي، وصرّح باستفادته من مؤلفاته النفيسة. أخبرنا بذلك أخونا الدكتور محمد أجمل أيوب الإصلاحي وبأنه فرغ من تحقيق هذه الرسالة، وستصدر قريباً ضمن مجموعة أعمال الشيخ المعلمي رحمه الله.

٥- استغرق إعداد هذه المجموعة وصفّها وتصحيحها وقتاً طويلاً، وقد حرصنا على أن يكون التعليق بقدر الحاجة، والتخريج بإيجاز شديد. وقد قام بعض الإخوان بتخريج الأحاديث والآثار والأشعار الواردة في المجموعة، وإن وقع في ذلك شيء من القصور والاضطراب لتطاول المدة وأسباب أخرى. ثم صنع إخوان آخرون الفهارس العامة للكتاب، فجزاهم الله جميعا خير الجزاء.

وأخيراً نشكر الشيخ الحاج الحبيب اللمسي صاحب دار الغرب الإسلامي في بيروت ثم في تونس على ترحيبه بنشر هذا الكتاب ضمن مطبوعات داره الشهيرة العريقة، سائلين الله عز وجل أن يمدّ في عمره، ويسبغ عليه رداء الصحة والعافية، وأن يوفقه وإيانا جميعاً لمرضاته، والله ولي التوفيق.

د. عبيد الله الفراهي